تُراث

turath_cmc
turath_cmc
تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 219 يناير 2018

الملف: الإمارات الخضراء

زايد «مروّض الصحراء»

حكمة المزارعين في المأثورات الشعبية الإماراتية

هل يتم إدراج التراث في مناهج التعليم؟

المرأة الإماراتية في ستينيات القرن العشرين

زينة وخزينة من الموروث الإماراتي

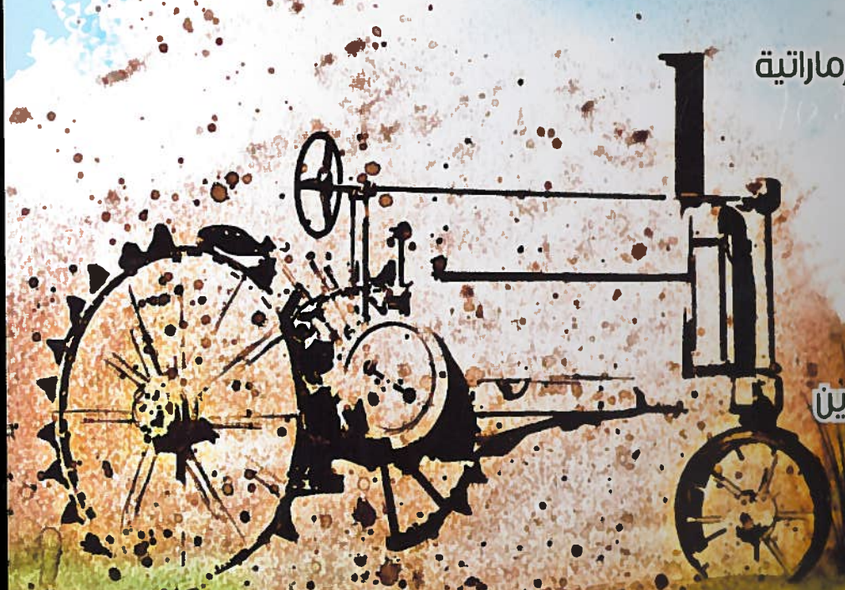

العشر اليفّافة وعشر الخادم

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات
العدد 219 يناير 2018

100 عام على ميلاد زايد

تُراث تستحضر سيرة ومبادئ وانجازات القائد المؤسس
دراسات وشهادات وحكايات وأشعار

المرأة الإماراتية في ستينيات القرن الماضي

◆ مريم سلطان المزروعي*

كانت والدتي تنصحني بخبرتها عندما أريد القيام بأي عمل من الأعمال، ومنذ طفولتي كنت أحب أن أتعلم منها ما يؤهلني للدخول في معترك الحياة، وهو عرف قديم، فكما أخبرتني كانت الأم تحرص قديماً على إعداد بناتها وتعليمهن كل ما تجيده.

أما جدتي شمسة المزروعي – رحمها الله - فكانت تقص عليَّ العديد من القصص عمّا كان يمر بهنّ في تلك الأيام.

وبتأثير من أمي وجدتي، زاد شغفي بمعرفة أحوال النساء الإماراتيات في ستينيات القرن الماضي، وطرق تدبيرهن الحياة وإدارتها، بالموارد الشحيحة التي كانت متوافرة في تلك الأيام. وهو الشغف الذي قادني للجلوس إلى عدد من النساء لأسمع منهن كيف كانت حياة النساء قديماً في بلادنا.

عمل دائب وتجارب قاسية

تخبرني جدتي كيف أنهن كن يبدأن يومهن بجمع الحطب، وحمله على رؤوسهن، وجمع العشب الذي كان غذاءً للأغنام والخراف، وبعد جمع كمية كبيرة يحملنها على ظهورهن إلى المنزل، ولا يرتحن بعدها، بل يواصلن القيام بأعمالهن حتى ينهينها قبل غروب

الشمس، وفي ذلك كن يسعين لتوظيف كل المعطيات المحيطة، لتوفير لقمة العيش والتأقلم مع البيئة. أيامها عانت المرأة بسبب ضغوط الحياة التي كانت تمر بها، فكانت النساء يتعبن ويشقين ويمرضن، ورحلة العلاج قد تنتهي بالشفاء أو بالموت. إلا أن أصعب تجربة كانت تمر بها المرأة في ذلك الوقت، كانت هي مرحلة الحمل والولادة، فقد كانت تتزوج في عمر صغير قد لا يتجاوز التاسعة. أذكر قصة – تقول جدتي - حدثت لامرأة كانت في شهرها التاسع، استيقظت في الصباح الباكر لتقوم بعملها المعتاد، وهي تقاوم ألم المخاض، ونزلت لتجمع الحطب للوراية (الحطب المستخدم لإشعال النار للطبخ)، ولتجلب الماء، وقد علقت القربة في وسطها، وحزمة الحطب على رأسها، وأثناء رحلة العودة جاءها الألم، وكلما أرادت المشي كان الألم يزيد حتى لم تعد تحتمل، فولدت صبياً وهي لوحدها دون صديق أو معين غير الله، وأخذت طفلها ولفته وحملته عائدة إلى بيتها، وتلقتها النسوة وحملن الوليد عنها، وجهزن لها الحبة الحمراء (حبة الرشاد) أو الحريروّة (تطبخ

مع السكر والقرفة والفلفل الأسود والطحين والسمن)، والتمر، بعد أن اغتسلت وتداوت بالملح وارتاحت ما يقارب الخمسة أيام، لتعاود الانشغال بأعمالها المنزلية.

المرأة قديماً: الأم والأب معاً

تسكن أم سعيد المزروعي في مدينة أبوظبي بالقرب من قصر الحصن. أخبرتني عن تلك الأيام القديمة بقولها: «كانت بيوتنا مصنوعة من سعف النخيل والأخشاب، وقد سكنتُ في هذا المنزل مع أسرتي المتكونة من والدي ووالدتي وإخوتي الأولاد والبنات، وكانت أمي تعلمنا نحن البنات كل شيء تعرفه، وكنا نشعر بفخر واعتزاز لذلك. لم تكن حياتنا كما هي الآن، فلم يكن لدينا شاغل غير أعمال المنزل، والأعمال الأخرى التي تكلفنا بها أمي. كانت المرأة قديماً تمر بالعديد من الظروف الصعبة، مثل سفر زوجها لمدة تصل إلى أربعة أشهر، فتتكفل هي بجميع الأعـمـال، وتصبح هي الأب والأم، وتسعى لتوفير الرزق ولقمة العيش، كما أنها قد تعاني كثيراً إذا أصابتها المحن، ومرض أحد أبنائها، فتسهر الليالي قربه، إلى أن يعيش أو يتوفاه الله. كانت لدينا نساء يعالجن الأمراض، إما بالأعشاب أو بالوسم،

كانت المرأة قديماً تمر بالعديد من الظروف الصعبة، مثل سفر زوجها لمدة تصل إلى أربعة أشهر، فتتكفل هي بجميع الأعمال، وتصبح هي الأب والأم، وتسعى لتوفير الرزق ولقمة العيش

وبعض النساء كن يجمعن الحطب ويغزلن الصوف والشداد والسدو والسرود والحصير، وكل ما استطعن صناعته، وبيعه في سوق أبوظبي، إلى جانب الأسماك التي كانت تباع كمشاكيك (خيط تربط به مجموعة من الأسماك ذات أحجام مختلفة) بربع روبية، أو المالح (السمك المجفف)، والفحم».

خطورة البحث عن الماء

تقول موزة الهاملي، من أبوظبي: «كنا نعمل في مجموعات، بكل واحدة 12 أو 15 امرأة، ولدينا قائدة تقوم بمتابعة أعمالنا على ظهور السفن، ننظفها ونملأ الفناطيس (الخزانات) بالماء العذب، مقابل مبالغ مالية بسيطة لا تتعدى الدراهم المعدودة، فالنواخذة يثقون بنا نحن النساء، أكثر من ثقتهم بغيرنا من الجنس الآخر، والنساء اللواتي يعملن في هذه المهنة من ذوات الدخل البسيط، أو المطلقات أو الأرامـل، أو من زوجات الغواصين، ويبدأ العمل عادة منذ الصباح الباكر حتى غروب شمس اليوم، وكذلك كنا نتعاون في حفر الآبـار للبحث عن الماء، إلى جانب اعتمادنا على اليحاحيل، وهؤلاء من يحملون الماء على أكتافهم في صفائح معدنية أو على ظهور الحمير، وأذكر واحداً منهم كان اسمه «حاجي». وبالنسبة لحفر الآبار، كنا نحفر الطوي (البئر) ولا يكمل فترة طويلة حتى يتحول ماؤه العذب إلى ماء مالح، ونعاود الكرّة بحفر بئر أخرى، وأذكر كان هذا المكان بالقرب من قصر الحصن في أبوظبي، ومرات كانت النساء ينزلن للأسفل للحفر بحثاً عن الماء، كمحاولة منهن، وهذه كانت مخاطرة كبيرة وخطيرة، حيث كثيراً ما كانت تتكسر جدران البئر على المرأة المسكينة التي تكون بداخله، ولكن الحاجة أقوى من كل شيء، ويقال للمرأة العاملة والمعروفة بالشجاعة والقوة في المكدة، إنها امرأة كديدة.

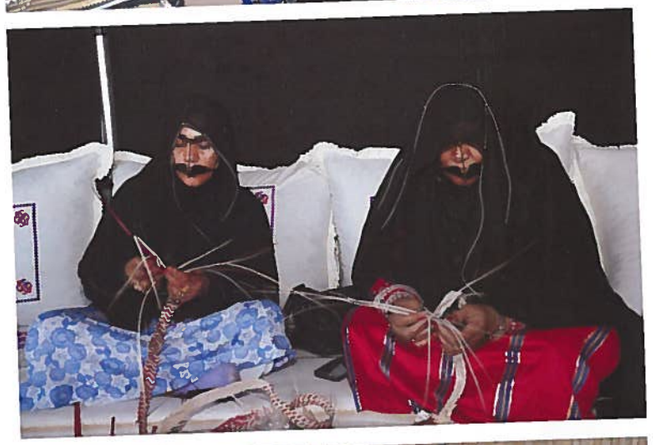

المرأة.. ضيان كديده

تقول أم سعيد المزروعي: «في موسم القيظ (الصيف) يذهب الرجال إلى مواسم الغوص، التي غالباً ما تمتد ما بين 3-6 أشهر، الرجال يذهبون إلى الغوص والنساء والأطفال يذهبون إلى مدينة العين لقضاء فترة الصيف هناك، حيث الماء العذب ومزارع النخيل، وتستغرق رحلة الذهاب على ظهور الإبل ما يقارب الأسبوع، بينما في رحلة العودة ما يقارب العشرين يوماً، لأننا في رحلة العودة نكون محملين بالأغنام والمؤن، مما يؤدي إلى بطء حركتنا. وفي كل ليلة من ليالي رحلة الذهاب أو رحلة العودة، كانت النساء هن من يقوم بالاهتمام بالأبناء وإطعامهم، وجمع الحطب وإشعال الضوء (النار)، ونار العودة من كثرة الشوق والوله للديار يقال لها (ضيّان كدّيده)، أي قوية لشدتها وشدة وهجها، يقول الشاعر راشد بن حمر عين الظاهري:

يا مريح الحال عن حالي
وحالته فـــي نار وقّيده
تشتعل يوم الملأ أذهالي
كنهـــــا ضّيان كّديده

وبعد فترة طويلة من الغياب، تلتقي المرأة بزوجها الذي يكون مشتاقاً لعائلته، وتلقي عليه المسؤولية التي أثقلت كاهلها».

تكافل نسوي وأدوار تعليمية

تقول أم جابر القبيسي، من مدينة أبوظبي: «كانت المرأة تدير مختلف شؤونها الأسرية، وتضطلع بمختلف مسؤوليات بيتها وأبنائها، والنساء كن

يتعاون في تلبية الاحتياجات الاجتماعية الخاصة بهن، بكافة أنواعها، كقدوم ضيف، أو حالات طارئة كوفاة أو مرض أو ولادة، والمرأة تقوم بجميع الأعمال كغسل الملابس وتنظيف وخم (كنس) البيت، وجلب الماء وتفصيل الثياب لها ولزوجها ولأبنائها، فهي تستيقظ قبل الجميع من قبل أذان الفجر لجلب الماء وتملأ به الخروس الموجودة في البيت، وبعض النساء عندما تكون جارتها امرأة كبيرة في السن وليس لديها أبناء، فإنها تتكفل بمساعدتها، وبهذا هي تحمل أعباء بيتها وبيت جارتها، وعندما تنتهي من الماء، تعد الريوق (وجبة الإفطار) قبل أن يستيقظ زوجها، وتبقى طول اليوم على هذه الحال، وفي نهاية اليوم يكون التعب قد أنهكها فتنام وتعاود الكرة اليوم الثاني. وهناك بعض النساء اللواتي كن يعملن في تدريس أبناء الفريج (الحي السكني) أو الحارة التي تضم (4-7) منازل، بتحفيظ القرآن الكريم، والتومينة وحفظ الألف باء وكتابة الحروف، ولكن بعض المطوعات يستفدن من البنات في تنظيف المنزل وجلب الماء، ومن المطوعات اللواتي أذكر أن لهن دوراً في تعليمنا، آمنة بنت مبارك، التي كان بيتها يقع عند القنصلية البريطانية، وبعض الأولاد كانوا يدرسون عند المطوع درويش بن كرم».

عافية رغم المشقة

تحكي عوشة الشامسي من مدينة العين، عن تفاصيل الحياة قديماً بقولها: «النساء كن يتجمعن في المجلس النسائي، وكل واحدة منهن تحمل معها دلتها (القهوة) وفوالتها (الأكلات التي تقدم للضيف كالعصيدة والخبيصة، الهريس وغيرها)، وأدوات الخياطة. والمجلس كان مصنوعاً من العرش والدعون، ولم تكن هناك أجهزة تكيف، لذلك كان من سعف النخيل ليهب علينا الهواء الطلق، ونبدأ بخياطة الملابس. والنساء الكبيرات كن يقرضن البراقع، ويخطن الكنادير لأزواجهن، وكان لدينا العديد من الأقمشة النسائية ذات المسميات المتعددة كـ (البريسيم، صالحني، بوقليم والمزراي وبو طيرة...) ومعظمها يتم جلبه من الهند، ولكن النساء هن من يقمن بخياطتها، قبل أن يتم استقدام العمالة الآسيوية ويأتي الخياطون، وأذكر أن بيوتنا كانت من اليص، أي من الطين والمدر، وكنت أكنس منزلنا بالعسّو (عذق الرطب بعد أخذ الرطب منه ويتم ربط أعواده بعضها ببعض)، وحياتنا كان فيها مشقة، ولكن كنا نشعر بالصحة والعافية والترابط».

تعليم مبكر

أما سلامة المزروعي، من مدينة أبوظبي، فتقول: «البنت تتعلم من أمها كل شيء، فأمي بدأت تعليمنا الأعمال البسيطة، كتنظيف وكنس ومسح البيت والروه (جلب الماء) بوساطة السعن أو الجربة (وعاء مصنوع من جلد الحيوانات كالأغنام أو الجمال)، من الطويان (الآبار) القريبة منا، كذلك كانت تطلب منا أن نربط الأغنام ونحش لها (قطع كميات كبيرة من العشب)، وبعد أن نتقن هذه الأعمال نبدأ بالأعمال الصعبة، كالطبخ والخياطة وصناعة التلي، فكل فتاة كان لابد أن تبدأ بالتعلم من والدتها، وتبقى ملتصقة بها، لأنها إذا لم تتعلم من والدتها فلن يعلمها أحد، وتعليم الفتاة يبدأ بعمر ما بين الخامسة والثامنة، وكنا نتنافس في إعداد الوجبات، وكل واحدة عندما تنتهي من إعداد وجبتها تركض لتطعم صديقتها منها. كنا نستفيد من جميع الموارد المتوافرة لدينا، فقد كنا نعاني من شظف وصعوبة وقسوة الحياة، ومن الأمور التي تعلمتها من أمي كيفية صناعة السعن، الذي يصنع من جلد الدابة التي تسلخ بعد موتها، ويملح الجلد بكميات كبيرة من الملح حتى لا يصاب بالعفن، ويدفن في الأرض فترة من الزمن، بعدها يدبغ الجلد بالقرط (أشجار السنط)، أو الأرطى (نبات بري) والملح، ثم يدهن بالصل (مادة تستخرج من الأسماك ولها استخدامات متعددة فهي مادة عازلة)، ويترك لمدة يومين لثلاثة أيام، حتى يقوى الجلد، وبعدها يدعك جيداً ويتم إزالة الشعر، ويخاط ويبقى فترة طويلة جيد الاستخدام، وإذا أصابه أي تلف أو تمزق تبدأ المرأة بخياطته وترقيعه، ولكن إذا كانت من عائلة ميسورة فإنها تصنع سعناً آخر».

ختام

هكذا اعتادت المرأة على التأقلم مع ظروف الحياة، وبما تجود به الطبيعة لسد الرمق، فقد كانت تسعى لتوفير الحياة السهلة لأسرتها وأبنائها، لتعاون زوجها وتقف معه لمواجهة صعوبات الحياة، فهي شقت طريقها وتركت بصمة في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة، تعتز به كل امرأة تنتمي لهذا الصرح ■

*كاتبة وباحثة إماراتية

القصيدة ـ القصة ـ المرأة «3 - 3»

د. سعيد يقطين

* ناقد من المغرب

كان لذيوع قصة ميلودة بنت إدريس ونجاحها الفني الشعبي، علاوة على التطور الذي عرفه حضور المرأة في الحياة العامة أثره في انتشار القصائد ـ القصص الشعبية التي تدور حول المرأة. لقد صارت المرأة موضوعا أثيرا للقصائد الشعبية، من جهة، وللنكات والنوادر الشعبية، من جهة ثانية، لما تلقاه من رواج واسع، وكأن المجتمع رأى أن التحولات الطارئة، بسبب انخراط المرأة في الحياة الجديدة، وراء كل المشاكل التي بات يعرفها. وإذا كانت بعض القضايا التي تتصل المرأة قديمة، وهي قائمة في البوادي والمدن على السواء، فإن استثمار وسائل النشر السمعي (الأسطوانات) جعلها تتعدى نطاق المساحات الضيقة التي كانت تروج فيها، وباتت تعرض على نطاق وطني.

إن كبريات القضايا التي تم تداولها في القصائد الشعبية المغربية في الستينيات والسبعينيات، حول المرأة، تدور بصورة خاصة حول الموضوعات التالية: العذرية، الخيانة الزوجية، الافتخار والتباهي بالغنى، من جهة. ومن جهة أخرى، لم تكن كل المواقف سلبية من المرأة عبر اتخاذ تلك الجوانب المظلمة التي تتعرض لها الموضوعات السائدة. كان إلى جانب ذلك التنويه بالمرأة النقيض، فتم التشديد على التمييز بين المرأة الصالحة (المَرْضية) والطالحة (المسْخوطة). وكانت تقدم المرأة الفرنسية نموذجا للمرأة الصالحة التي تعمل على تكوين أبنائها لمواجهة المستقبل، وتساعد زوجها في تحمل أعباء الحياة.

لكننا بالمقارنة بين الموضوعين المتضادين نجد التركيز ينصب، بشكل أساسي، على المرأة السلبية. وتحتل مسألة العذرية المكانة الأساسية. تتناول قصائد «المختاري والغليمي والبيض»، و«بوشعيب الدكالي وحميد العبدي»، و«العوني والعراش»، وسواهم قضية الخطبة، والعرس والزواج. فالشاب (العزري) في قصائد هؤلاء يريد أن ينهي حياة العزوبية، وإتمام نصف دينه (نوع من التوبة)، وبعد التعرف على فتاة من المدينة (قصيدة الثنائي حميد العبدي وبوشعيب الدكالي)، والرضوخ لمطالب الفتاة في المهر، وكيفية إجراء العرس، ومصاريفه الباهظة، يتكشف ليلة الزفاف أنها ثيب، بل وهي حامل من أربعة أشهر؟ فلا يسعه، سوى رفض ستره إياها، وتطليقها، ويحمل نفسه مسؤولية الأموال التي بددها في زواج فاشل، وأنه بدل أن يتزوج فتاة من البادية أصر على اختيار واحدة من المدينة. وتنتهي القصيدة باللجوء إلى والديه في البادية للخطبة، ويكون النجاح في الزواج.

إذا كان هذا النوع من القصائد يركز على المرأة فإن الاشتراك في موضوع العذرية يتدخل فيه الرجل أيضا. نجد نقيض القصة السابقة في قصيدة العوني والعراش في قصة «الحبس». لقد أحبت فتاة من البادية العوني وبعد مباشرتها، طلبت منه الزواج، فرفض ذلك بدعوى أنها هي التي عرضت عليه نفسها، وتعلقت به. فلم يكن أمامه إلا قضاء ستة أشهر في الحبس لرفضه الزواج منها. وبعض وصف المغني معاناته في السجن، ينهي قصيدته بدعوة الشباب إلى الانتباه إلى إغراءات الفتيات وحيلهن للإيقاع بهم في حبائلهن.

من الحبائل لها يتعرض الرجل إقدام امرأة على الزواج منه رغم علمها بأنه متزوج وله أولاد (قصيدة الضرة لـ«صالح ومصلح»). وحين يرضخ لطلبها يعاني الأمرين مع زوجتيه. ومن النكت التي تروى في هذا السياق، أن المتزوج بامرأتين صغيرة وكبيرة، ترهقانه معا. فالفتاة صغيرة تعمل على نتف الشعر الأبيض من رأسه ليبدو شابا. أما المرأة الكبيرة فتنتف الشعر الأسود لكي لا يبقى إلا الشعر الأبيض ليبدو شيخا. وبعد مدة لا تبقى في رأسه شعرة واحدة؟ يندم المتزوج بامرأتين على فعلته، ويطلق الجديدة، ويعود إلى أم أولاده.

كان التفنن في تنويع الموضوعات وسرد القصص وراء تقديم صور طريفة حول المرأة ما تزال تثير الاهتمام والتحليل ■